مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات

المصدر: الجمهورية

التاريخ : ١٩٨٣/١٠/٨

السادات .. وسياسته

من هو انور السادات ؟؟
ذلك هو السؤال الذى اثار جدلا واسعا تصدى له ايضا فيليب فرنانديز ارمستو فى كتابه « حكم السادات » الذى صدر من دار تنسال بريس فى لندن .

كان السادات هو المصرى الثانى الذى يحكم مصر خلال القرن وخمسمائة عام وكان جمال عبد الناصر الاول .. وفيما عدا ذلك ظل يحكم مصر فى هذه الفترة من التاريخ الاتراك والمماليك والفرنسيون والانجليز والالبان .

ولكى نجد نظيرا للسادات او عبد الناصر علينا ان نرجع الى عصر الفراعنة .. هذه الحقيقة المذهلة تثير شعورا بالارتياح المتناهى منذ ثورة ٢٣ يوليو بالمقارنة بالزمن الطويل للسيطرة الاجنبية التى سبقتها ، كما انها تمثل خيط الاستمرارية بين مصر الفرعونية ومصر المعاصرة التى خبرنا قوتها فى مناسبات عديدة .

السادات : عقلية تاريخية

لقد تاثر السادات نفسه الى حد ما بهذه السمة فى تاريخ مصر وكانت له عقلية تاريخية تركز على الماضى وتتصل به وكان على وعى عميق بعناصر النظام والهدوء الذى يحكم تاريخ مصر رغم اضطرابه الظاهر .

وجاء تشكيل السادات الفكرى والسياسى فى الاعوام من ١٩٢٠ الى ١٩٣٠ حيث كان يسود مصر الفساد الاجتماعى والظلم والركود الاقتصادى والتدهور السياسى وفوق كل ذلك الاحتلال الانجليزى .

وكانت استجابة السادات للظروف السائدة فى ذلك الوقت مثل باقى ابناء جيله من المصريين .. لم يكن ثوريا ملتهبا حماسا ولم يظهر مواهب الزعامة مبكرا كما لم يكن طفلا مفرط الحساسية .

ولم يتألق كزعيم ملهم الا بعد ان سقط عنه ظل عبد الناصر ثم دفعه اكثر واكثر ولع المصريين بتمجيد رؤسائهم .

ولم يتأثر السادات بشيء كتأثره بخلفية السيطرة الاجنبية على مصر في نضاله لتحقيق الاستقلال وحلمه بأن تكون مصر متحررة من اى دولة اجنبية وقادرة على تحديد دورها بنفسها واتخاذ طريقها الخاص في العالم .

الاستقلال اولا

لقد ساد الاعتقاد بان السياسة الخارجية المصرية تسيطر عليها المشكلة الفلسطينية منذ ثورة ٢٣ يوليو . ولكن السعي الى الاستقلال كان هدفا اقوم واوسع .. ليس الاستقلال الشكلي بمعنى اخراج المستعمر الاجنبي وممارسة الحكم ولكن استقلال التصرف في المجال الدولي حيث يمكن ان تلعب مصر دورا كبيرا . الاستقلال في رسم وتطبيق السياسة الخارجية دون الخضوع لتأثير القوى الخارجية

ولم يكن مسعى الاستقلال في اى وقت سهلا بالنسبة لمصر ، فقد عرفت الدول الكبرى دائما باغراء توسع مصر الاستراتيجي .. الفرس والمقدونيون والرومان في العصور القديمة والاتراك والفرنسيون والانجليز في العصور الحديثة ثم بعد ذلك الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة .

بل ان زعيما ملتهب الوطنية كعبد الناصر الذي حارب بحمية لاخراج مصر من اشكال السيطرة الاجنبية لم يستطع تفادي الخضوع لدولة كبرى وكان السادات وحده هو الذي نجح او اوشك على النجاح في تخليص مصر وتحرير سياستها تماما .

بدأ التزام السادات بقضية الاستقلال مصر في طفولته على شكل كراهية بريئة للانجليز الدخلاء وحين انتقل من قريته الى القاهرة ليدخل المدرسة بدأ يشعر بوجود قوات الاحتلال كواقع ملموس وكان نضاله ضد احتلال الانجليز في السنوات الاولى لحركة الضباط الاحرار اول مراحل مساهمته في السعي الى استقلال مصر

كان تحرير مصر من الانجليز الذي قام به عبد الناصر انجازه الاعظم الا ان اخراج الانجليز لم يكن يمثل استقلالا تاما لان الامبراطورية البريطانية في افولها كانت سحابة ستمطر بفعل رياح التغيير العالمية وحرارة شمس شروق جديد في آسيا وافريقيا .

ولقد شهدت سنوات حكم (الضباط الاحرار) تنافس قوتين جديدتين في العالم حلتا محل بريطانيا وناضلتا باشكال الاستعمار الاكثر براعة لاكتساب الشعوب غير المنحازة الى صفها في نضيتها السماة الشيوعية والرأسمالية والى تحقيق مصالحها الخاصة في الواقع .

بداية التقارب مع امريكا

وعندما تولى السادات اصبح الاتحاد السوفيتي هدفا لمصر في سعيها للاستقلال فبدأ السادات بهمته بفتح قنوات للاتصال بالولايات المتحدة بمبادرة السلام عام ١٩٧١ وقام عام ١٩٧٢ بطرد الخبراء السوفيت ثم الغى معاهدة الصداقة التي عقدها بنفسه مع السوفيت عام ١٩٧٦ وخرجت مصر نهائيا من براثن الدب الروسي .

وعلاقة عبد الناصر بروسيا ليست

العلاقة السادات بامريكا ، فالاخيرة اكثر فائدة لمصر الى جانب انها حليف منزه عن الغرض » وعلى ذلك يمكن القول بان السادات قد نجح فى سعيه لتحقيق استقلال مصر .

ورغم ان مصر اضطرت فى سبيل اتمام معاهدة السلام مع اسرائيل عام ١٩٧٩ الى ان تصبح فى موقف اعتماد مؤقت على امريكا بسبب وقف المساعدات الاقتصادية العربية فقد كانت مراجعة علاقات مصر بالعالم العربى التى صاحبت الوفاق المصرى - الامريكى عمرما فى صالح استقلال مصر بعدم خضوعها لتاثيرات راى عام خارج حدودها وكانت قطيعة مصر مع العالم العربى مؤقتة فقد استعادت معاملاتها تدريجيا مع الدول العربية المعتدلة .. وفتح السادات بذلك الباب للصداقة مع دول اوربا الغربية

مرة اخرى .. من هو السادات ؟؟

واذا عدنا للسؤال : من هو السادات تكون بذلك قد طرحنا سؤالين اثنين ، الاول هو « ماذا كان راى السادات عن نفسه ؟ » لان السادات لم يكن من طراز الرجل الذى يتاثر براى الاخرين وكان محمود شخصيته الاخلاص لرؤيته الخاصة ورفض الخضوع لقوى ووكلاء خارج نطاق سيطرته .

وثانيا : من المناسب ان نسال الى اى مدى يمكن استخلاص سمات موضوعية لشخصيته من كتاباته وتصرفاته .

ينبغى ان نتيح الفرصة لافتراض امكان ان يكون تصورنا عن الرئيس المصرى الراحل مختلفا عن تصوره هو لنفسه .

والواقع اننا اذا قارنا هذين التصورين تصور السادات لنفسه والاثر الذى يتركه على المراقب نجد الخلاف واضحا .. وهو ليس خلافا على الجوهر حيث ان السادات متحرر من الاوهام الى حد كبير فهو يرى نفسه عموما كما يراها الاخرون الا ان الامر يتعلق بالاولويات .. فالسادات يرى نفسه فلاحا اولا يرتبط بحب القرية والارض .

لكن النشاة ليست دائما هى الاساس انه فلاح بالمولد وبالاختيار الا ان حنينه للارض يذكرنا بان مشوار حياته قد ابعده قسرا عن اصله الفلاحى مثل فرع شجرة هائلة . وكانت مسئولياته ومشاغله كرئيس ترتبط بجذوره ولكن من مسافة شاسعة .

وكانت طبيعته كفلاح تؤثر عليه دائما لكنها لم تكن على راس افكاره وتصرفاته مثلما كان ايمانه كمسلم .

وبتحليل خطاباته واحاديثه نجد ان احكام الدين وسور القرآن الكريم تساهم فى مفردات حديثه بضعف ما يساهم به اى شىء اخر .

لقد كان السادات ليصبح صورة مشوشة بدون الاسلام ، وفى الدراسة السياسية للسادات نجد ان الفيضان السياسى لايمانه هو اول ما يثير الانتباه ، انه يعرف السياسة على انها فن بناء مجتمع تكون ارادة الله هى القانون وهى مقولة ادهشت الغربيين اذ انهم راوا فيها قولا عفا عليه الزمن لانهم اعتادوا على الفصل بين السياسة والعقيدة منذ العصر الوسيط ، وعلى ان لكل منهما عالما منفصلا .

الا ان ذلك الفصل لا معنى له فى الاسلام الذى هو فى نفس الوقت نظام للايمان وطريقة للحياة واطار لتنظيم المجتمع وسلوك افراده وبذلك

نجد ان تعريف السادات ينبع من قلب الاسلام وهو يستمد منه افكاره عن مجتمع الكرامة الانسانية والمساواة لان المسلمين يؤمنون ايمانا تاما بالمنزلة الخاصة التى يحتلها الانسان عند الله ، وهم مقتنعون بوجود الخير فى الانسان مما يجعلهم متفائلين بشكل عام فى فرصة الانسان فى اقامة مجتمع عادل يتساوى فيه الناس حيث انهم يرون أن الناس سواسية امام الله .

وكانت رؤيا السادات لمجتمع عادل فى هذه المنطقة من العالم تقوم على ايمانه بانسانيته ومساواة الجميع والالتزامات المتبادلة بين العقائد الثلاث السماوية وكان يرى ان كل انسان له قدره المرسوم له وان قدره تحقيق السلام .

ومن المفيد تتبع هذا الايمان السياسى او هذا التصور الدينى للسياسة فى حياة السادات واعماله

لقد كانت فترة تشكيل السادات فى شبابه فى الثلاثينات فترة اشتدت فيها تأثيرات التيارات الغربية .

وكان الفكر العلمانى سائدا وسط تنظيم الضباط الاحرار الذى كان السادات احد مؤسسيه وكانت رؤيا الضباط لمصر القوية الحديثة نابعة من تأثيرات غربية .

.. ورغم هذه الظروف المخالفة فان السادات الشاب يتبين افكارا دينية كانت اساس تصوراته التى وصفناها فلقد كان الايمان عزاء له فى ايام سجنه اثناء الاحتلال البريطانى وكان هناك ايضا الدور الذى قام به كهمزة وصل بين الضباط الاحرار والمرشد العام للاخوان المسلمين ، وكان السادات مثل كثيرين غيره من المعجبين بالمرشد العام حسن البنا .

لقد كرس السادات حياته لتحقيق استقلال بلاده وتحقيق السلام ومحاولة بناء مجتمع افضل بتحقيق الديمقراطية والرخاء لكن نجاحه انحسر قرب نهاية حياته وظهرت علامات متزايدة على عدم استقرار الامور فى مصر .

وبدا هو نفسه فى الصيام الاخير من حياته يفتقد العفوية التى كان يمارس بها قدراته ، ومات وهو فى تيار الهبوط .

لقد اظهر قلقه من انه بدأ يواجه فترة ازمة عندما تولى بنفسه منصب رئيس الوزراء فى التعديل الوزارى فى مايو ١٩٨٠ فى ذكرى ثورة التصحيح ، ولم يكن قد تولى مثل هذه المسئولية المباشرة لمواجهة حالة طوارىء وطنية منذ حرب ١٩٧٣

وكان ذلك اعترافا علنيا بأن الموقف خطير .

كان الزمن يسير فى غير صالح مساعى السلام وكانت الاضطرابات الداخلية تتزايد فمشروعات السادات الكبرى من النوع الذى ينضج نضجا طبيعيا ولم يتبين العالم نتائج هذه المشروعات عندما اطلق عليه الرصاص فقد كان قائدا يرسم للمستقبل وكانت البصيرة احدى سماته كحاكم ، كانت سياساته الاقتصادية موجهة لتعطى ثمارها على مدى اجيال وليس على مدى عشرات السنين فقط .

كان يتطلع الى توزيع السكان فى مصر توزيعا متوازنا وهو ما لم يكن من الممكن تحقيقه الا فى مئات السنين - زراعة الصحراء ، وكانت رؤياه لمجتمع من الامن يعيش فى سلام فى الشرق الاوسط رؤيا للمستقبل البعيد .

وكان توقيت موته بعد عشر سنوات فقط من بداية حكمه خطرا على

سمعته فلم تكن اى من لمسات سياساته قد ظهرت .

ومع ذلك فيمكن القول بأن الموقف كان خطيرا وان خطط السادات القائمة على بصيرة نافذة لمدى ابعد كانت مصدرا لضعف نظامه ، فالحكومات الديمقراطية كالتى كان السادات يأمل فى ان تكونها حكومته تضطر لتحقيق مكاسب سريعة لتلبية المطالب الجماهيرية ، وقد اضطر السادات فى احتياجه لفرض امال اطول مدى على الشعب ان يخرج عن مستواه الديمقراطى الخاص وان يقرب من وقت لاخر على ابدى الصحافة والاعلام ليكبح جماح احزاب المعارضة وليرسم حدودا دقيقة للنقد العلنى

وهذه الفجوة بين مقولة الديمقراطية - التى تحققت جزئيا بالفعل وضرورة فرض سياسات يلتزم هو بها على المدى الطويل فى مواجهة التفكك الشعبى وفقد السيطرة خلقت فجوة بين الحكام فى طبقته وشعبه ، فانتهت مظاهرات ١٩٧٧ ، ١٩٧٩ بتجاهل صالح الفقراء وهى صفة غير عادلة رغم انها ليست الشئ الذى يوصل اليه حتى سياساته ذات الاهداف البعيدة .

وربما يكون صحيحا ان السادات لم يحظ بحب الفقراء كما كان عبد الناصر على الاقل فيما يتعلق بفقراء المدينة فى فترات تغيير النظام الاقتصادى تظهر فئة اكثر تضررا بالنسبة لحدة مشاكلها وبعدها عن تحقيق اى فائدة ، وفى العام الاخير من حكم السادات كانت المشكلة حادة فقد كان التضخم يتزايد بمعدل ٢٥ الى ٣٠ فى المائة سنويا

وفى سبتمبر ١٩٨٠ حظر بيع اللحوم لمدة شهر للتغلب على النقص فيها وكانت مصر بالفعل واحدة من اقل بلدان العالم من حيث نصيب الفرد من اللحوم .

وفى فبراير ١٩٨١ تم تخفيض الدعم للمواد الغذائية كلها ماعدا الخبز فى الوقت الذى كان فيه صندوق النقد الدولى يواصل ضغطه على الحكومة المصرية لاجراء مزيد من خفض الدعم .

دور المثقفين

وبدأ تقوض نظام السادات يظهر بالاخص فى تزايد المعارضة بين مجموعات من المثقفين الذين كانوا من قبل من اخلص مؤيديه ، وبعد حل حزب الوفد الجديد تحولت معارضة المثقفين الى شكل اكثر نضالية عام ١٩٨٠ وما بعده بسبب الهلع الذى سببه صدور القوانين الاستثنائية بين صفوف الليبراليين واحزاب المعارضة

وكانت اكبر المشاكل التى واجهت السادات قبيل موته واشتدها اضرارا بسمعته وثقته بنفسه هى تعطل خطة السلام التى كانت محورا رئيسيا لسياساته فلم يتم خلال العامين الاخيرين للمفاوضات مع اسرائيل شىء محدد وظلت المحادثات حول وضع القدس والحكم الذاتى للفلسطينيين متوقفة تماما .

وكان من المفترض وقت ان حددت الاتفاقيات كامب ديفيد ابريل ١٩٨٢ موعدا لانسحاب اسرائيل من سيناء ان يتم بحلول هذا الموعد الاتفاق على النقاط الاخرى الا ان رفض اسرائيل لاى تنازلات بدد هذا الافتراض

ولم يكن مناحم بيجين رئيس وزراء اسرائيل شخصيا يؤيد اى تسوية بشأن فلسطين او القدس وعلى اى حال فقد غلت يديه اغلبيته البرلمانية الميالة الى التمسك بمزيد من التشدد لتبقى فى الحكم .

واجتهد السادات دون جدوى فى ايجاد طرق جديدة لاحياء محادثات السلام حول القدس والحكم الذاتى للفلسطينيين .

الماء مقابل السلام

وفى نوفمبر جدد عرضا سابقا لاسرائيل بمبادلة مليون متر مكعب من ماء النيل يوميا بتسوية لمسألة القدس والحكم الذاتى للفلسطينيين وقبل مدته بوقت قصير جرب القيام بمبادرة سلام اخرى ليس الى القدس هذه المرة ولكن الى اوربا وامريكا لاحياء محادثات السلام والبحث عن مقترحات جديدة قد تكمل كامب ديفيد فقام فى لندن فى اغسطس ١٩٨١ بدعوة الولايات المتحدة الى الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية دون شرط اعتراف المنظمة باسرائيل مسبقا كوسيلة لتنشيط المحادثات لكنه كان على ما يبدو مبالغا فى التفاؤل فى اعتقاده بان حكومة ريجان قادرة على مبادرات فى جسارة مبادراته وخياله .

هكذا توقفت محادثات السلام وازدادت المعارضة لسياسته فى مصر وقام حزب المعارضة الرئيسى - حزب العمل الاشتراكى - بسحب تأييده لكامب ديفيد بسبب ضم اسرائيل للقدس الشرقية واستمرار سياستها فى اقامة المستوطنات اليهودية فى الضفة الغربية .

العودة الى التراث

وازداد يأس السادات من العثور على عنصر جديد لتنشيط مسيرة السلام ، وارتد السادات الى مذكراته التى تتيح له فرصة التأمل بعيدا عن المشاكل التى يواجهها .

لقد تحمل اكثر من طاقته من عالم يتعارض مع ضخامة وجسارة طموحاته وكان هذا سبب حالته النفسية الحساسة فى اواخر ايام عمره .

وقد اسرع المعارضون فور مقتل السادات الى القول بانه ضرب السلام وان تعثر المفاوضات الاثار جوا من الفشل جعل السادات هدفا للمؤامرات الا ان التحقيقات اظهرت ان قتلة السادات ليسوا مهتمين بكامب ديفيد بشكل خاص وان استهدافهم لما يمثله السادات ينصب على اسباب اكثر عمومية .. وكان السلام اكثر سياسات السادات شعبية فى مصر حتى حين بدأت شعبيته فى الافول .

ولقد كانت محادثات السلام متعثرة وقت موته ولم يكن هناك ما يستطيع اعادة الحياة اليها سوى حدث هائل مثل اغتيال السادات .. لذلك يمكن القول بأن موته كان تضحية فعالة رغم انها غير مقصودة . فقد القى مسئولية انجاز السلام على حكومة ريجان التى تستطيع وحدها محاولة ذلك .

ومات السادات مثلما عاش فى مشهد مسرحى مدوى اعطى شرعية للسلام تماما مثلما فعل من قبل عبوره البطولى وجحه الى القدس واعادة فتح قناة السويس .

اميمة ابو النصر